ماذا علمتني الحيـــاة ؟

تأليف الأسقف و . ر . أنج
بقـــلم الأستاذ علي محمد سرطاوي

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

أرى من واجبي أن أذكر شيئاً عن آرائي في الدين ، لأن دين الإنسان الصحيح هو ما يتعلمه في مدرسة الحياة ، وكثيراً ما يختلف عن المعتقد الذي يعتقده وهو صغير . لقد نشأ والداي في مكان ناء عن المدن في الريف ، وكانا من الشابين والمتعصبين لعقيدة الثركتاريين القدامى من اتباع بوسي و كبل (Posey—Keble) وهم فئة لا وجود لها اليوم ، يتركز معتقدها في الصلاة وعدم الإيمان بطقوس الكنيسة . وهم يؤمنون إيماناً حرفياً بما في الكتاب المقدس ، وبصورة خاصة بما نشره الحواريون من تعاليم لم تثبت تاريخياً . ولقد كانوا متقشفين على الطريقة البيوريتانية من حرمان النفس والبذل للمحتاجين . كان يوم الأحد مقدساً جداً ؛ لا ألعاب فيه ، ولا قراءة في كتب دنيوية . ولسبب لا نعرفه كانت تحرم علينا قراءة الروايات ذات (الغلاف الأصفر)[1] حتى روايات تاكاري وديكنز كانت تحرم علينا .

أما قصص شكسبير ووالترسكوت فكانت تقرأ علينا بصوت جهوري ، لقد كانت ثقافة جيدة على عيوب الرقابة التي فيها .

لكنني سرعان ما تمردت على ذلك ، وأحسب أن أبي لم تتعرض تمردي طيلة حياتها ، ولم يسرها مطلقاً تقدمي المطرد في سلك الكهنوت لأن الرأي السائد في ذلك الزمن كان يتلخص في أن الرجل المفكر لا يصلح لخدمة الكنيسة . إنني لم أفكر مطلقاً في المعتقدات الدينية إلا عندما صرت محاضراً في جامعة اكسفورد . لم يكن يسمح لنا في إيتون بالتفكير في مشاكل الحياة ، وحينما كنت طالباً في الجامعة لم يكن لدي هم غير التنقيب عما تطلبه لجان الامتحانات . أما في اكسفورد فإن أقل محاضر يجب أن يكون فيلسوفاً .

(١) قصص رخيصة تافهة ، تطبع على ورق أصفر وغلافها كذلك ، كانت شائعة في منتصف القرن التاسع عشر . (المترجم)

لقد كان الصراع بين الدين والعلم — ذلك الصراع الذي أثار ضجة كبيرة في القرن الماضي — يبحث من جميع وجوهه بحثاً مستفيضاً يبدو لنا الآن سخافة مضحكة . أن المعتقد الأرثوذكسي يعتمد في أصوله على النبوءات والمعجزات المتواترة . ليس هنالك سبب يحملنا على الاعتقاد بأن في مقدور البشر معرفة الغيب . إن المسيح نفســه قد اعترف بعجزه عن معرفة زمان يوم القيامة . والبحث في صحة تحقيق النبوءات المزعومة يقودنا إلى سبل ثلاث : أما أن تكون النبوءة قد قيلت بعد وقوع الحادثة ، أو أنها حرفت لتوافق الحادثة في سياق لا علاقة لهـا به أبداً ، أو أن الحادثة اخترعت لتوافق النبوءة . إن الافتراض الثالث يبدو واضحاً جلياً في الانجيل ، والأمثلة على ذلك تتراءى لنا في أسطورة الميلاد في بيت لحم ، وفي أسطورة مذابح الأبرياء ، وفي الهرب إلى مصر .

أما ما يتصل بحدوث المعجزات طبقاً لإرادة الله ، فأمر يرجع الإصرار عليه إلى ما تواتر في المـاضي من رغبة اقتران وقوع المعجزات مع أحداث خاصة ، وهو في ذاته لا يعود على الدين بربح جزيل . لم يكن قول جوته : (إن المعجزة ابنة الإيمان العزيزة) إلا تفسيراً لمحاولة الناس ربط قوانين الطبيعة الباردة بتيـار من حرارة الروح ، والهرب من الواقع الجامد إلى الخيال الجميل .

إن الاستناد إلى رحمة الله ، وأنه يستجيب الدعوات وهو المعتقد الأساسي لكثير من الناس قد يكون في الاستطاعة من جهة أخرى ، كما اقترح ، اختبار أثر دعاء المخلوق إلى الخالق ، بطريقة عملية ، كما اختبرت (التباثي) وهي نقل الأفكار من شخص إلى آخر — وكما ثبتت في الولايات المتحدة ، وفي هذه البلاد ، على رأي بعض الناس . والسخط البالغ الذي تقابل له تجربة من هـذا النوع ، يخفي وراءه الحقيقة المريرة وهي الفشل التام للتجربة . أن الإله الذي لا يعمل — كما يخيل لناس — أما أن يكون لا ظل له في الوجود ، وإما أنه قانون مجسم من قوانين الطبيعة .

أما ما يتعلق بالعلم فقد كان الجدل فيه عقيماً . لقد أنكر علماء العصر الفكتوري « المادة » ، وفسروا العالم بأنه أنواع من (الكم) الميكانيكي ، ساخرين ضمناً مما سماه بسارك « الأجسام التي لا ثقل لها » ، ووصلوا من طريق ذلك إلى ما سموه « بالنظام

التماسك المتناسق » . وما دعوه خطأ قانون النسبية لم يكن غير قانون الاستمرار الدائم .

أما العلم الصحيح فلم يكن غير الرياضيات . ليس بالصحيح القول أنها تبصرنا بحقائق لا قيمة لها ؛ لأن الحقيقة في حد ذاتها قيمة مطلقة . إن الرياضيات تضرب صفحاً عن القيم النهائية ولا تؤمن بها ، وتنفض الطرف عن قانون الحرارة والعمل الميكانيكي الثاني (ترموديناميك) والذي بموجبه تتحرك الدنيا في اتجاه «قرب الساعة» .

أما الدين ، والمثل العليا فقد أضاف هربرت سبنسر كل ما يدرك إلى العلم ؛ وما لا يدرك إلى الدين ، وخطا ليزلي ستيفن خطوة أكثر فتحدث عن الحقائق الثابتة والأحلام . لقد ظلت (دنيا القيم) كالضباب على وجه العالم الملموس في النجوم والذرات ، غير أنها احتفظت ببعض محتوها فيما يتصل بالأمور الخارقة للعادة والتي سميت بالمعجزات والتي لم يأبه بها العلم كثيراً . وعلى كل حال سواء كان سبب انتشار مرض الكوليرا الماء الملوث بالجراثيم كما هو الواقع ، أم إلحاد رئيس البلدة التي ينتشر فيها ذلك الوباء ، كما كان اعتقاد كثير من الناس آن ذاك ، فقد انتهت تلك الفصول الهزلية من مسرح الحياة .

عندما أفكر فيما كان يسميه وليام جيمز « التجربة الدينية » وما كان النوس يدعونه بالنور الداخلي أو الإيمان بالروح القدس ، يروق لي أن أكرس كثيراً من وقتي لدراسة الصوفية والأفلاطونية ؛ شأن الكثيرين الذين كان يضطرم في نفوسهم مثل هذا الاحساس أن الإيمان بالقديسين يكاد يكون أمراً مفروغاً منه ومجمعاً عليه ، وأولئك الذين أعطوا كل ما يملكون ليجدوا الجوهرة الثمينة ، لم يرجعوا صفر اليد ولم يكونوا جميعاً من المسيحيين . لقد كان بلوتونيوس أعظم فلاسفة التصوف في القرن الثالث الميلادي وثنياً . وقد ابتدأنا ندرك الآن أن أشياء كثيرة نستطيع تعلمها من الهنود . وليس أصدق من القول الذي يزعم أن الديانة المسيحية والبوذية قد خسرنا بتدابرها في طرق الحياة . إن خيال التصوف يبدو لي غامضاً لأنني لم أحصل على ممرنة كافية ، ولكنني من ذلك النوع من الرجال الذين لو حدثهم من يثقون به عن وصوله أعلى قمة من جبال العالم ، لاعتقدت إمكان الوصول إلى تلك القمة على رغم عجزي عن الوصول إليها . إن الديانة المسيحية كما يصفها سنت أغسطين ليست إلا الأفلاطونية ممزوجة بعقيدة حلول الروح القدس في المسيح . تكاد معظم الفلسفات تجمع على جعل الإنسان مندمجاً في المثل التي تفهمها الحياة . لكن الديانة المسيحية لا تفصل مثل ذلك . الله هو المحبة . وكثيراً ما تورد المحبة صاحبها موارد الهلكة ؛ وحب الله العظيم للناس جعله يضحي بابنه في سبيل إنقاذهم . إن التضحية هي قانون أولئك الذين يتبعون الله ويؤمنون به ويضحون في سبيل الآخرين ويتحملون الآلام ، وكما عبر عن ذلك وليم بن بقوله (لأجزاء بلا تضحية) وكثيراً ما أميل إلى أن جماعة «الكويكارز» قد تأثروا بهذا الرأي كثيراً .

لم تتغير آرائي في شخص المسيح إلا قليلاً . لقد تأثرت في صدر حياتي بما كتبه عن المسيحية شيلي وهارنك والبروتستنتيون من الألمان . لقد وجهت نقداً لاذعاً في محاضراتي في الجامعة لقول ليوزى (أن المسيح ليس إلا فلاحاً من منطقة الجليل في الأرض المقدسة محدود الذكاء) . اعتقد أن استمرار إيمان الحواريين بالمسيح بعد صلبه لم يكن إلا انعكاساً من أنفسهم لما تأثروا به وهو بينهم . ومن غير المعقول أن نؤمن بما قاله ليوزى ونحن نرى الأثر الذي تركته حياة المسيح في حياة الناس مدى الأجيال البعيدة . والاعتقاد بعودة المسيح ليس في رأيي غير انعكاس عميق لحماس روحي لم يستطع الناس تفسيره بغير الأمل العظيم في مستقبل قريب . ألم نجرب ذلك في نفوسنا ونحن نعلق الآمال على وقت سعيد مقبل ، فهل يتغير ذلك الاعتقاد إذا ما أناخ بكلكله علينا وقت سيء مفعم بالآلام ؟

أرى لزاماً على أن أبين الخطر الذي يكمن وراء ما يسمونه (عبادة المسيح) لقد أساء مارتن لوثر فهم معتقد سنت بول ، ذلك المعتقد الذي كان لا يعني غير صوفية عميقة في المسيح . إن المسيح الذي تعبده الديانة المسيحية هو الذي كان حياً ومات ، والذي لا يفنى أبداً . لقد آمنت بأن الأقسام الثلاثة التي قسم سنت بول بموجبها الطبيعة الإنسانية : الجسد والروح والنفس ، صحيحة من وجهة سيكولوجية . إننا نعيش في عالم المادة ، والروح طليقة تعيش في المادة وما وراءها ، فينبغي أن تكون حياتنا الداخلية تحولاً مستمراً من المادة إلى الروح . إننا نكاد لا نؤمن بإمكان تحويل الشخصية

المادية إلى شخصية غير مادية مطلقة . هذا هو الشرح لضرورة وجود الرمزية في الدين . أما في الحياة المادية فإننا نستطيع أن نرى — كما في المرآة — عن طريق الرمزية . وحينما تمر كل يوم من المنظور إلى غير المنظور ، ومن الحقيقة إلى الخيال ، تكاد تتملكنا رغبة تدفعنا إلى محاولة رؤية المجهول في عالم الزمان والمكان الذي نعيش فيه . لقد قلت في إحدى مواعظي أن من أبسط واجباتنا نحن رجال الدين أن نساعد الذين في بصيرتهم ضعف على رؤية ما لا يدرك بالحواس ، وهو عمل محفوف بالمصاعب . وإذا كان قولي صحيحاً ، كان التقليل من الغموض في الدين أدعى إلى إنارة أذهان الناس وأدعى إلى بلوغ ذلك الهدف عن أقرب طريق . لست أريد أن أتجاوز أكثر من هذا في حديثي لأننا كثيراً ما نسمح لأنفسنا بحرية أوسع في التفكير والخيال .

لقد كان اهتمامي بالغاً بالفلسفة والدين ، وقد ملكا علي جميع أوقات فراغي . ولم يمنع هذا الاهتمام أن تكون نواح أخرى صرفت لها بعض وقتي ورغبتي . إن من حق الفرد في الحكومات الديمقراطية أن يعبر عن أفكاره تعبيراً صحيحاً ، ويقنع من حوله بما يدور في رأسه من مثل وآراء . وهذا يصدق على رجال الدين أيضاً ؛ غير أنه لا يجوز لرجل الدين وهو يحتل منصباً رسمياً في الكنيسة أن يجاهر بآراء خاصة قد لا يؤمن بها غيره من المسيحيين التابعين للكنيسة . لقد ظهرت محاولات عديدة ليكون للكنيسة صوت في الحياة السياسية ؛ ولكن الكنيسة تجنبت ذلك تمشياً مع قول اللورد أكتون الذي يقول : (إن كل قوة مصيرها إلى الفساد) . ولذلك احتفظت الكنيسة بحيادها ولزمت الجانب الروحي من حياة الناس .

كان أبواي من المحافظين ، وقد ابتدأت علاقة أتباع الكنيسة العليا بالاشتراكية عن طريق جور وسكوت وهولاند ، وكانوا يأسفون أن يكون المستر جلادستون خيراً من دزرائيل من جهة الدين .

أما ما يتعلق بي ، فإنه ليضحكني أن أذكر — حتى زمن حرب البوير — أنني كنت محافظاً متعصباً على طريقة رديارد كبلنج ، وقد أثرت تلك الآراء في وفي الكثير من أمثالي ، ورأى القرن الجديد انكماش الإمبراطورية البريطانية وتقلصها ، وأصبح لزاماً على الإنجليز أن تكون لهم آراء تتمشى مع التطور الجديد .

لقد بلغت الثروة جميع الشعوب التي تقع على شواطئ الأطلسي ، وأصبح اتجاه التوسع الإمبراطوري إلى الشرق ، وانتهى من ناحية الغرب . إنني لا أنسى قول اللورد هلدان في مطلع الحرب العالمية الأولى : (لو ركن الألمان إلى السلم لنالوا كل ما يريدون) . لقد ألقوا بالجائزة مرتين من أيديهم . وقد أخذ عصر الاسترقاق يطل برأسه على الدنيا . إن المستقبل للشعوب التي لديها أرض واسعة ، ومستوى منخفض في المعيشة ، واستعداد للعمل المرهق ، ونحن والفرنسيون لا ندخل في نطاق هذه الشعوب .

كثيراً ما يتراءى لنا أن ثلاثة أخطار تهددنا : أولها حق التصويت العام . من المؤكد أن السياسة ستنحط إلى نوع من المزاد العلني تباع وتشترى فيه أصوات الأغلبيات غير الممثلة . أقول غير الممثلة لأن المفروض أن أصحاب الحرف التجارية والمهن قد مثلهم في المجلس مائة مقعد ، إلا أن الواقع يظهر أن كثيراً من المناطق لا يمثلها أحد غير مدينة لندن والجامعات القديمة . لقد تدهورت معنويات العامل الإنجليزي تدهوراً جعله غير مرغوب فيه عند الشعوب الأخرى .

والخطر الثاني : نمو سلطان الحكومة المركزي من أثر الحربين الأخيرتين ، وفي سبيل القضاء على الطغيان الناشئ ، قد جعلنا أنفسنا فاشيين : إن عبادة الدولة شر أنواع الوثنية . والشعب الإنجليزي يضع قوته في المجتمع لا في الدولة . لكن الدولة الآن تصول وتجول وتتجاوز كل حق موضوع .

والخطر الثالث هو اكتشاف قنابل الذرة ، ذلك الاكتشاف الذي وضع سلاحاً رهيباً في يد الدولة وقوى سلطانها . ليس هنالك ما يدعو إلى الخوف من القنبلة الذرية الآن . ولقد بدا ذلك واضحاً في روسيا وألمانيا حيث عوملت الجماهير بأشد ما في الظلم والهمجية من معان . نقول لأنفسنا أحياناً : « إن أعمالاً من هذا النوع لا تحدث عندنا » ، وربما كان ذلك صحيحاً .

لكن الخطر لا يزال موجوداً . إن الطبقات المتوسطة التي تحمي الحرية الشخصية آخذة في الفناء ، والأحرار الذين كانوا في زمن سابق يحمون هذه الحرية أصبحوا في موقف سيء لا يحسدون عليه . حينما كنت طفلاً كان الأحرار يعيرون المحافظين بأنهم حزب بليد . لقد جنوا على أنفسهم وهم يفسحون المجال للامتيازات